

## الطريق إلى التجاوز

فى النصف الثانى من القرن العشرين (الذى اعتدنا بعد تردد على أن نصفه بالقرن الماضى) خبرت البشرية مقولة «أن التغير هو الثابت الوحيد» . وفى العقود الأخيرة من هذا القرن ، وبالذات منذ عام ١٩٧٠ الذى صدر فيه كتاب ألفين توفلر «صدمة المستقبل» ، تركز الحديث على «سرعة التغير» وآثارها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بشكل عام . واعتمدت تحليلات التغير وسرعته على دراسة منجزات «الثورة العلمية والتكنولوجية» وآثارها الحاضرة والمستقبلية لقد عبر توفلر عن ذلك بمفهوم «الموجة الثالثة» التى تلت موجتى الزراعة والصناعة فى حياة البشر . وشاعت بعد ذلك مصطلحات «المجتمع ما بعد الصناعى» و «مجتمع المعلوماتية» و «ما بعد الحداثة» . وشهدت نهايات القرن العشرين إرهابات الحديث عن «مجتمع المعرفة» ، وقيام أنشطته على أساسها ، ونضج التنظير لبعضها (اقتصاد المعرفة مثلاً) بشكل واضح .

لكن المشهد الاستعراضى للعقد الأخير من هذا القرن ، وما حمله من أحداث كبرى متباعدة ، دفعنى إلى الانتباه إلى فكر جديد يدعو إلى تجاوز «التجربة الإنسانية» نفسها والتخلص من قيودها ، على حد تعبير أصحاب هذا الفكر . ودون محاولة للحصر أو التصنيف ، يمكننا أن نذكر أمثلة لهذه الأحداث المتباعدة : ظهور القطبية الأحادية والإعلان عما سمي بالنظام العالمى الجديد ، بعد سقوط الكتلة الشرقية وقيادة التحالف فى حرب الخليج الثانية ، بأبعادها العنيفة الدائمة من كل الأطراف - الثورة الرقمية التى صاحبت انتشار الإنترنت وتأثيرها المتزايد على حياتنا - تكنولوجيا الواقع الافتراضى - التفكير جدياً فى سكنى الفضاء وعدم ارتباط مصيرنا بالأرض فقط ، مع الاشتراك فى إنشاء المحطة الدولية بعد سقوط «مير» والاتحاد السوفيتى معاً - نجاح استساخ

الحيوانات الشديدة (دوللي) ، والإعلان عن إمكانية استنساخ الإنسان بل واحتمال حدوث ذلك فعلاً - البدء في مشروع خريطة الجينوم البشري ، وإعلان مسودته الأولى عام ٢٠٠٠ (الذي يرى البعض أنه نهاية القرن العشرين ، ويرى البعض الآخر أنه بداية القرن الحالي ، وكانت الحوارات حول ذلك من بين مكونات المشهد الاستعراضي المذكور) - التعايش مع الكائنات المحورة وراثياً ، والجدال المستمر حولها - خريطة المخ ، ووصف التسعينيات بعقد المخ ، حيث عرفت البشرية عنه في هذا العقد ، ما يفوق كل ما عرفه منذ فجر التاريخ - الروبوتات الذكية التي يخشى البعض تفوقها على الإنسان «بصورته الحالية» ، ويدعون إلى تغييره للاحتفاظ بالصدارة - تثوير علاقة الإنسان بالآلة ، والانتقال من مجرد اعتبار الآلة امتداداً خارجياً لقدرات الإنسان إلى إيجاد علاقات إندماجية أدت إلى ظهور أول كائن بشري سيبري (سيبورج) زرعت فيه أداة للتواصل بين عقله والأجهزة الموجودة بالعالم الخارجي - القواعد شديدة الوطأة ، في رأى الكثيرين ، لمنظمة التجارة العالمية ، التي امتدت إلى كل أشكال الملكية الفكرية - حق التدخل ، الذي يمارس تحت غطاء «التدخل الإنساني» ، وإن كان يتم بصورة لا تجعله يفترق كثيراً عن «غطرسة القوة» .

وإذؤكد مرة أخرى أن الأحداث السابقة بعيدة عن الحصر والتصنيف ، أود أن أتوقف أمام «حق التدخل» ، باعتباره المحور الختامي لهذه الكراسة . وحق التدخل هنا يختلف كثيراً عن «حق التدخل الإنساني» الذي يمارس في عالم السياسة والحرب (أو الحرب والسياسة ، لأن طبول الحرب غير المبررة هي الأعلى صوتاً وقت كتابة هذه السطور) . إن حق التدخل الذي أعنيه ليس «حق التدخل الإنساني» لكن «حق التدخل في الإنسان» . وهو الحق الذي تستند إليه الجماعات التي نناقش فكرها هنا ، في الدعوة التي ذكرناها إلى تجاوز «التجربة الإنسانية» نفسها والتخلص من قيودها . إن أصحاب هذا الفكر يتطلعون إلى بدء التاريخ ما بعد الإنسانى Posthuman History ، الذي لن يحدث إلا إذا أتينا إلى الوجود بكائنات ما بعد إنسانية Posthumans عن

طريق التدخل الحاد والجريء فى الطبيعة البشرية وتطويرها . ويرى هؤلاء أن الأمر يحتاج إلى مرحلة انتقالية تتم على أيدي المقتنعين بتجاوز إنسانيتهم Transhumans . إنهم يرون أن الإنسانية ليست نهاية محتومة لقدرنا التطوري ، وأن المرحلة الجديدة تعتمد على تطوير نوعنا بأنفسنا .. أن نقول كلمتنا بعد أن قالت الطبيعة كلمتها . وينطلق مشروعهم من الآفاق الممكنة والمحتملة للدمج بين التطور والمعلوماتية والتكنولوجيا الحيوية ، بهدف «هندسة» كائناتهم الموعودة ذات القدرات الفائقة والتنوع الكبير ، بحيث لا يربطهم بنا إلا اعتبارنا «أصلهم المشترك» !!! (هل يذكر ذلك بالأصل المشترك بين الإنسان والقردة العليا ؟ ... قد لا تخلو هذه الفكرة من الوجهة) .

وقبل أن نسترسل ، نرى أن من حق القارئ والتساؤل : هل يندرج هذا الفكر تحت «الخيال العلمى» ؟ والإجابة الموضوعية - بعيداً عن الحكم القيمي على ما قد يكون فيه من خطأ أو صواب - ليس بالضبط . فحجم التدخل الممكن والمتوقع كبير ... كبير . وإهمال القراءة النقدية لهذا الفكر هو الخطأ بعينه . إن «صدمة المستقبل» الناجمة عن التغير المتسارع ، ومحاولات الإنسان أن يتكيف مع آثاره ، قد تبدو متواضعة أمام هذه الصدمة الجديدة ، التى تعد تطوراً نوعياً للصدمة الأولى . إن الصدمة الجديدة لا تكتفى بتكيف الإنسان مع ما يحدثه من متغيرات ، لكنها تدعو إلى تغيير الإنسان نفسه ، وتؤكد القدرة على ذلك وحتمية حدوثه . لذلك ، فهى تعد بحق قمة «صدمة المستقبل الثانية» ، وإن كان من الضروري أن نفهمها فى ضوء استيعابنا لما تعنيه «صدمة المستقبل الأولى» ، التى شرحها لنا توفلز ، لذلك أقترح أن نبدأ بإعادة قراءة «مشروع توفلز» والتعرف على ما يعنيه «صدمة المستقبل» ، لنعرف كيف تجاوزتها الأحداث وصولاً إلى الصدمة الجديدة ، التى نستعرض ملامحها قبل أن ننهى بالحديث عن قمتها وما تدعو إليه من تجاوز الإنسان لإنسانيته ، حتى نضع الموضوع فى إطاره الشامل والمتكامل .